وجهة النَّظر من منظور تلفّظيّ
رواية "ليال أخرى" لمحمد البساطي نموذجًا

سهيرة شبشوب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية -صفاقس

نحاول في هذا المقال دراسة وجهة نظر السَّارد في رواية "ليالٍ أخرى" لمحمد البساطي. وهي رواية تفرض نفسها في مثل هذه الأبحاث. ومن الطبيعي أننا لن نجد بالضرورة في هذه الرواية كل القرائن النظرية الخاصة بهذا المبحث.

تعريف الرِّواية

"ليال أخرى" رواية تدور أحداثها حول بنت مات والدها وتزوجت من عبد العظيم زواجا في السر قائما على اِتفاق على أنه لن يدوم سوى عامين، لذلك باتت تقضي حياتها في بيت يتعدد زائروه بعد طلاقها من زوجها واِستقرارها بعيدا عن أخويها. يحاول أخواها أن يرجعاها عن هذه الحياة، بحثّها على الزواج، لكنها باتت تعتبر الزواج تجربة فاشلة وغير قابلة للإعادة. واِستمرت في معاشرة رجال متعددين. لكن كل رجل يدخل بيتها يوجد مقتولا بعد ذلك. ويبدو أن ياسمين فهمت اللعبة وبات ذلك يريحها حتى أن همتها أصبحت منصرفة إلى ليال أخرى. ونتساءل، شأننا في كل أثر قصصيٍّ، عن وجهة النَّظر في هذه الرّواية، من صاحبها وما درجة عمقها؟

"ليال أخرى" ووجهة نظر الشّخصيّة

من بين السمات البارزة في هذه الرواية تميُّزها بحضور الذاتية لا سيّما في بداياتها. ويلفت الاِنتباه أن الشخصية ليست فقط مسرودة وإنما هي صاحبة وجهة نظر. وقد اُفتُتِحت الرِّواية بالفقرة التالية:

"السكة متربة. تتعرج صاعدة. تختفي وسط أشجار كثيفة حيث ذهبوا بنعش أبيها إلى المقابر. **تنتظر عودتهم على أول السكة**. نسوة يلبسن السواد تجمّعن على ضفة مجرى الماء، ينتظرن أيضا. أمها بينهن.. لا **ترى** منها غير مؤخرة رأسها.(ليال أخرى، ص 7).

أول ما يمكن ملاحظته أنّ السَّارد مجهول، وأنّ ثمة شخصية هي مدار الخطاب، تمَّ تعيينها بضمير الغائبة. ولا يخفى أنّ الفقرة وصفية منذ منطلقها. فيها وصف للسكة، فهي "متربة. تتعرج صاعدة. تختفي وسط أشجار"، ووصف للأشجار، فهي "كثيفة"، وفيها أيضا وصف للنسوة، فهن "يلبسن السواد تجمّعن على ضفة مجرى الماء". وقد تجلى الاِنفصال التّلفّظيّ من خلال الاِختلاف في نوع الجمل. فقد وردت الجملة الأولى التي تخص المبأَّر والتي وضعنا تحتها سطرا اِسمية وهي: "السكة متربة. تتعرج صاعدة. تختفي وسط أشجار كثيفة حيث ذهبوا بنعش أبيها إلى المقابر"، وكذلك الجمل التالية المسطرة وهي: "نسوة يلبسن السواد تجمّعن على ضفة مجرى الماء، ينتظرن أيضا. أمها بينهن..."، بينما وردت الجملتان اللَّتان تتضمّنان فعلَي الإدراك فعليتين، وهما: "تنتظر عودتهم على أوّل السّكة" ثم "لا ترى منها غير مؤخرة رأسها". وتقوم الجمل الاسميّة على الوصف الذي يعبّر عن إدراك الشّخصيّة، أكثر مما يعبِّر عن الحدث. كما أننا نلاحظ وجودَ موضوعين مبأَّرَيْن هما السكة أوَّلا والنسوة ثانيا، بينما المبئِّر هو البنت. ورغم غياب الاِسم العلم فإنه من الجليِّ أنّ هذه المشاهد وردت علينا من خلال ذاتيّتها، ذلك أنّ الفعل "**تنتظر**" واصلةً تحيل على ذاتية

الشّخصيّة ونفسيتها، فعادة يكون الاِنتظار حالة فراغ من الفعل يدفع إلى التأمل وإعمال النَّظر. وقد منحت حالة الاِنتظار هذه، البنتَ الفرصة كي تتأمل مليّا أمامها، فتحيطَ بجزئيات الطريق. لذلك نتلقَّى صورة السكة من خلال ذاتية الشّخصيّة، فهي متربة تتعرج صاعدة وتختفي وسط أشجار كثيفة. إنّ المتكلم إذن هو السَّارد، والرائي هي البنت. وإلى جانب ذلك نجد ذوتما مكانيا تمّ به تحديد موقع الشّخصيّة، هو "**على أوّل السّكة**". وهو يؤكِّد أنّ البنت، من موقعها ذاك، هي التي بصدد النَّظر إلى ما اِمتد أمامها من هذه السكة.

أما الواصلة التي أكّدت أنّ الموضوع المبأَّر الثاني "النسوة" ورد من خلال ذاتية الشّخصيّة، فهو الفعل "لا ترى غير"، ويعني الحصرُ الإثباتَ والتأكيد على أنها ترى. وقد أحدث اِنفصالا تلفظيا وأكَّد وجود ذاتية مختلفة عن ذاتية السَّارد. لقد توزع إدراك البنت بين اِتجاهين، فهي من جهة تنظر إلى آخر السكّة حيث اِختفى الرجال، ومن جهة أخرى ترى النسوة وترى مؤخرة رأس أمّها.

ولو تمعَّنَّا في المثال أعلاه، لبان لنا أن الواصلتين والذوتَم لم ترد في أول الكلام وإنما وردت وسط المشهد، ولعله من الأفضل، رغم ذلك، أن نعتبرها حدًّا اِبتدائيا، ذلك أنّها لم تسبق بحدٍّ آخر، أي لم نجد على سبيل المثال اِسما علما في بداية وجهة النَّظر.

وبالبحث عن عمق المنظور نجد أنه محدود، فالشّخصيّة لم تكن قادرة على رؤية نهاية السكة لأن الأشجار كانت تحجبها، وهي لم تكن تستطيع رؤية المقابر لأن تلك الأشجار الكثيفة كانت تحجب عنها الرُّؤية. وكما أنّ الأشجار كانت تحجب عنها رؤية السكة وفعل مواراة أبيها التراب، كانت النسوة يحجبن عنها رؤية أمها، فقد كانت "لا ترى منها غير مؤخرة رأسها". إن الشّخصيّة محكومةٌ بوضعيّتها الإبستيمية، مقيَّدةٌ بمكانها لا ترى إلا ما

يسمح به موقعها. وهي لا تستطيع كذلك أن تتكهَّن بما يحدث خلف الأشجار لأنها مجرَّد بنت صغيرة تعجز عن معرفة ما يحدث خارج مرمى بصرها.

ويبدو أن السَّارد يصرّ على ألا يكون هو مصدر الإدراك، فحالما يأخذ الكلمة ليسرد يعود من جديد ليعبِّر عن إدراك الشّخصيّة أو أفكارها الممثلة. ويتجلى هذا في المثال التالي:

1. تلتفت على ضجة البنات، عدن بعد قطف الزهور. 2. وجهها أبيض مشوب بحمرة خفيفة، عيناها عسليتان، شعرها كستنائي ينسدل حتى نصف ظهرها، نتف قليلة من القش عالقة به، فستانها كحلي بكولة بيضاء، وحذاؤها أسود مترب بأبزيم من الجنب، شراب أبيض يصل إلى منتصف ساقيها. 3.يحدّقن إليها. 4- تلمح إعجابا بجمالها في عيونهن"(ليال أخرى، ص 7).

بدأ المقطع الأول بفعل "تلتفت"، وهو واصلة تعلن عن بداية وجهة نظر الشّخصيّة التي تتمثل في قوله "عدن بعد قطف الزهور". فقد مكَّن الالِتفاتُ الشخصيةَ من رؤية البناتِ وهن عائدات.

لكن زاوية النَّظر تتغيَّر في المقطع الثاني، فتصبح البنتُ مبأَّرة بعد أن كانت مبئِّرة. ويظهر هذا في قوله:

"وجهها أبيض مشوب بحمرة خفيفة، عيناها عسليتان، شعرها كستنائي ينسدل حتى نصف ظهرها، نتف قليلة من القش عالقة به، فستانها كحلي بكولة بيضاء، وحذاؤها أسود مترب بأبزيم من الجنب، شراب أبيض يصل إلى منتصف ساقيها".

ومن الواضح هنا أن البنات أصبحن المبئرات، ذلك أنّ أوصاف البنت وردت من خلال ذاتيّتهنّ. لكن لم يقع تحديد الذات الرَّائية إلا بعد تقديم وجهة النَّظر، وذلك

بواسطة الواصلة "يحدّقن إليها"، فلسارد "ليال أخرى" طريقة عجيبة في إيراد وجهة النَّظر، إذ نجد أنّه على اِمتداد الرِّواية غالبا ما يرِد فعل الإدراك بعد وجهة النَّظر. ويحدث هذا نوعا من اللبس.

ويبدو أن الرُّؤية عميقة، ذلك أنها وردت بعد فعل "حدّق" الذي يدلّ على إمعانٍ للنّظر مكّن الرائيات من الإحاطة بكل جزئيات الشّخصيّة المبأَّرة. ولكن يعود عمق الرُّؤية إلى سبب آخر هو أن المبئِّر لم يكن واحدا وإنما كان متعدِّدا. لقد بدت البنت محطَّ أنظار البنات، فكلّ واحدة منهنَّ شاهدت جزءا، بعضهن شاهد وجهها بكل تفاصيله، وبعضهن شاهد ظهرها وقد اِنسدل شعرها عليه. وبتجمُّع وجهات النَّظر تشكَّلت صورة البنت.

وتتواصل وجهة نظر الشّخصيّة، فنجد واصلة تحيل على إدراكها تتمثل في فعل "**تلمح**"، فنرى من خلال إدراك البنت، صورةَ الرجال الذين "تنساب جموعهم من عتمة الظلال. مجموعة وراء أخرى. النعش فارغ. يحمله أربعة رجال. يهتزّ خفيفا فوق أكتافهم، والشال الذي كان يغطيه في الذهاب مكوّم داخله وقد تدلى طرفه على الجنب".

وقد لا ترتبط وجهة النَّظر بما ترصده العين رصدا آنيًّا، وإنما قد تحيل على أفكار ترتسم بذهن البنت عن الماضي بعد أن كبرت وأصبحت اِمرأة، كما في المثال التالي:

"لمحت في الضوء الآتي من خلف الستارة زغبا خفيفا على فخذيها. عاودها **المشهد**. تبحث خلاله عن شيء خطر لها وهي بين اليقظة والنوم ثم نسيته. وربما رأته في الحلم(...). تتقدمهن البنت ذات الضفيرة السوداء. تلبس فستانا بنصف كم يكشف عن ذراعيها السمراوين، وزغب ذهبي كثيف على الساعدين، يتوهّج حين تنالهما الشمس. تنظر إليه متعجبة. تمدّ أصابعها لتتحسسه" (ص 9).

إن المتكلم في هذه الفقرة هو السَّارد، لكنه لم يكن هو المتلفّظ على اِمتدادها. ففي الكلام الذي ورد قبل عبارة "المشهد"، كان السَّارد متلفظا ومتكلما في آن واحد. وهو ينقل لنا صورة من الحاضر، وهو الزمن الذي تحوَّلت فيه البنت إلى اِمرأة مستلقية في فراشها، تنظر إلى الزغب الخفيف على فخذيها. لكنه في الكلام الذي ورد مسطرا لم يكن سوى متكلِّم لأنه كان ينقل أفكار الشّخصيّة، فالشّخصيّة تفكِّر والسَّارد يتكلم.

وتمثِّل عبارة "المشهد" واصلة تصلنا بمقطع كامل، هو عبارة عن عملية ذهنية حدثت في ذهن الشّخصيّة، متمثلة في صورة راودتها عن الماضي البعيد. وتعود بنا هذه الصورة إلى المقام الذي اِنطلقت به الرِّواية والمتمثلِ في موت الأب، وإحاطة الفتيات بالبنت. وكيف ظهر زغب ذهبي كثيف على ساعديها، وكيف ردت على حركة صاحبة الضفيرة السوداء بأنه "حايروح" كما قالت أمها.

وتتواصل وجهة نظر الشّخصيّة بعد ذلك كما في المثال التالي الذي يخصُّ المرأة بعد أن طلَّقت زوجها واِستقرت بمفردها في بيت لها:

"تقف بروب الحمام خلف **النافذة** في الصالة بعد أن **أزاحت الستارة** قليلا. بيدها فنجان النسكافيه وباليد الأخرى سيجارة مشتعلة. تلك اللحظات من البكور. ميدان باب اللوق يكاد يكون خاليا. أفراد قليلون يقفون على محطّة الترام وسط الميدان. لحظة وأخرى ويظهر العجوز واِمرأته"(ص11).

يبدو أن موقع المرأة الذي تمّ تعيينه وهو: "**خلف النافذة**" يمثِّل أحد المشيرات المكانية التي تمهِّد لعمليَّة الإدراك، ناهيك عن الفعل "**أزاحت الستارة قليلا**"، فقد مكّناها معا من مشاهدة الشارع الذي سيرد وصفه من خلال ذاتيتها هي، ففي تلك اللحظات من

البكور، "ميدان باب اللوق يكاد يكون خاليا. أفراد قليلون يقفون على محطّة الترام وسط الميدان".

ولن نتلقى إدراك الشّخصيّة للمكان فقط وإنما نتلقّى أفكارها في ما يلي:"لحظة وأخرى ويظهر العجوز وامرأته".

وسرعان ما يتغيّر موضوع التبئير، فبعد أن كان "الشارعَ" أصبح "العجوز وامرأته". ويظهر هذا في ما يلي: "بعد أن **راقبتهما** مرات كثيرة أيقنت أنهما زوجان. هو ببالطو رمادي يرفع ياقته، وهي بسترة سوداء فوق فستان بنيّ. دائما نفس الملابس شتاء وصيفا(...) يستند بعصاه إلى الرصيف الذي يبدو مرتفعا بالنسبة إلى ساقيه المتعبتين. ويمدّ يده الخالية نحو المرأة(...) يقصدان مقعدا لا يغيرانه(...)تفتح المرأة حقيبتها وتخرج خرقة أو منديلا كبيرا تمسح به المقعد. لابد أنه مبلل بندى البكور. العجوز نافذ الصبر يتعجلها. يبدو ذلك من وقفته القلقة.تلتفت إليه العجوز في اِنحناءاتها وتقول شيئا. يدير وجهه(...) حركة يدها على المقعد بطيئة متأنية. ربما اعتادت ذلك في بيتها، وربما كان البلل شديدا". (ص ص 11-12).

نلاحظ أوَّلا تغيرا في صيغ الأفعال، من الماضي في الجملة الأولى إلى المضارع فيما بقي من الفقرة وهو ما يحدث اِنفصالا تلفظيا، ناهيك عن الفعل "راقبتهما" الذي يعلن عن بداية إدراك تقوم بها الشّخصيّة. ويبدو أن الرُّؤية محدودة فالشّخصيّة محكومة بوضعيتها الإبستمية لا تستطيع أن ترى إلا ما هو ظاهري لدرجة أنها لم تسمع ماذا قالت للعجوز، ولم تعرف لماذا كانت حركة يدها بطيئة عند مسحها المقعدَ، حتى أنها خمّنت ذلك تخمينا.

وقد تكون الحركة في المكان واصلة لوجهة النَّظر كما هو بيّن في المثال التالي: "تخرج إلى شارع طلعت حرب. مارة قليلون يسرعون إلى أعماله من صبية ينظفون واجهات

المحلات الزجاجيّة. فتاة راكعة داخل فترينة ترتّب وضع الملبوسات، بجوارها مانيكان عارية تتمايل مع زحف الفتاة.حركة المانيكان الصامتة تشبه شيئا مألوفا لا تتذكره. قدماها تعرفان الطريق، وجسدها ينثني خفيفا"(ص14).

جليّ أنه بمجرد خروج المرأة إلى شارع طلعت حرب، اِنفتح أمامها مشهد جديد يصلنا من خلال وعيها هي تحديدا. إنّ كلَّ ما يخصّ الشّارع من مارّة وصبية ومحلاّت زجاجيَّة وفتاة ومانكان داخل الفترينة، كلّ ذلك ورد عبر ذاتية الشّخصيّة، رغم أنّ الذي تكلم هو السَّارد. أما ما ورد بعد وجهة النَّظر، أي قوله: "قدماها تعرفان الطريق، وجسدها ينثني خفيفا" فهو مجرد سرد ورد على لسان السَّارد.

وجهة نظر السَّارد

يبدو جليا أن ساردا مجهولا اِضطلع بهذه الرِّواية. ونسجِّل أوَّلا أنّنا لو كنّا سنعتمد تصنيف جينيت فلن تكون طبيعة السَّارد محدِّدة لعملنا، بمعنى أنه لن يهمنا عندها إن كان السَّرد قائما على ضمير الأنا أم كان سردا مجهولا(1). بينما تكون كذلك عندما نريد اِعتماد وجهة النَّظر كما يراها راباتال. ذلك أنّنا سنجد أنفسنا أمام الصعوبة التي ذكرها راباتال، والمتعلقةِ بتحديد إدراكاتٍ وأفكارٍ تحيل على كيان يجمع بين وظائف المتكلّم والمتلفّظ في آن واحد، أي كيان "يسرد" و"يرى" في الوقت نفسه. وأوّل ما يكون محدّدا للفصل بينهما هو الذّاتية. ولنبّين ذلك يمكن اِعتماد المثال التّالي الذي يخصُّ البنتَ ياسمين وأخويها وهم يمرحون في صغرهم:

"هي عارية على شط النهر. تنزوي معهما خلف جميزة. خلعوا عنها ملابسها التي تلطخت بالطين. كانوا يعدون بين أحواض الزرع هاربين من رجل يقذفهم بالحجارة. هم **على ما يبدو فعلوا ما أغضبه وجعله يجري وراءهم.** تنزلق قدمها وتهوي في الطين" (ص61)

نلاحظ أولا أنّ عبارة "هم على ما يبدو"، ترتبط بزمن الحاضر، وتحيل على تقويم متباعد عن زمن وقوع الحدث، فالسَّارد تحوَّل في الجملة المشدّد عليها من مجرد سارد إلى صاحب وجهة نظره. وكأنه بهذا يقدِّم وعيه الخاص بديلا عن عدم إدراك الشخصية، لكن وعيه هذا لا يقدم شيئا في الحقيقة، فهو مجرد تخمينات.

وقد نجده في بعض المواضع يتمتع حقا بمعرفة الحقيقة كما في المثال التالي الذي يبين غيرة الأخوين على ياسمين:

"لا تنتبه لحافة الرصيف، ولا السيارة القادمة. يمدّ أحدهم يده ويجذبها من ذراعها. صرختها الخافتة. يلتفتان. **لم يريا السيارة التي مرقت مسرعة. كل ما رأياه يد الرّجل تترك ذراعها.** الشرر الذي تطاير من وجهيهما.."(ص57).

إن الجملة المشدد عليها ترد في مستوى سردي ثان، وتؤكّد أن الأخوين ليسا هما مصدر الإدراك لأنهما"لم يريا" ما حدث. رأيا فقط جزءا من الحقيقة وهو "يد الرجل تترك ذراعها"، بينما ثمة مصدر آخر يبدو أنه شاهد على الحقيقة كلِّها.

وقد نجد وجهة النَّظر موزعة بين الشّخصيّة والسَّارد، ونورد المثال التالي الذي يخصُّ حضور البطلة ياسمين حفل خطوبة مديحة زميلتها في الكلية:

"معها في مدخل القاعة أفراد قليلون، **ربما كانوا من الأقارب البعيدين، أو مثلها دعُوا صدفة.** هي في وقفتها لا تتحرك. تنظر هنا وهناك. تلمحه يقف متراخيا عند باب القاعة. يلبس سترة بيج وقمصا أخضر مفتوح الياقة، يداه في جيبي البنطلون، **لا بد أنه دخل من لحظات فلم تبصره من قبل.** توقفت عيناها عليه وسها عليها. ملامحه التي تبدو خليطا من المصري والأجنبي، شعره الأشقر الناعم مفروق من النصف ويتهدل على أذنيه. **ربما أحس بنظراتها،** التفت نحوها مبتسما"(ص51).

اِضطلع السَّارد في هذا المثال بالسَّرد في الجمل غير المشدّد عليها. لكنّه في الجمل المعيّنَة بالخط الغليظ، تحوَّل إلى صاحب وجهة نظر، ومما يؤكّد هذا، وجود ثلاث علامات صريحة هي "لابدَّ"، و"ربما" وقد تكررت مرتين، وهي علامات تؤكّد أنّ الشّخصيّة ليست هي مصدر الإدراك لأنّها تجهل ما يحدث، فهناك ذات أخرى هي مصدر الإدراك وهي ذات السَّارد الذي بات بذلك يجمع بين وظائف المتكلم والمتلفظ معا. ويبدو الاِنفصال التّلفّظيّ واضحا من خلال وجود مستويين، ففي المستوى الأول نجد هيمنة للجمل الاِسمية التي ترتبط بزمن الحاضر، بينما قامت الجمل في وجهة النَّظر على صيغة الماضي.

لكن ذاتية الشّخصيّة حاضرة أيضا وذلك في ما شُدِّد عليه ما يلي: "تلمحه يقف متراخيا عند باب القاعة. **يلبس سترة بيج وقميصا أخضر مفتوح الياقة، يداه في جيبي البنطلون**". ونجدها كذلك حاضرة في ما يلي: "وقفت عيناها عليه وسها عليها. **ملامحه التي تبدو خليطا من المصري والأجنبي، شعره الأشقر الناعم مفروق من النصف ويتهدل على أذنيه**".

فمن الجلي أن الواصلتين "تلمحه" و "وقفت عيناها عليه" هما فعلان يمهدان لعملية إدراك الشّخصيّة، فصورة الفتى سترد علينا من خلال رؤيتها له.

1-نقصد بالسرد المجهول ما درج النقاد العرب على وسمه بـ"السرد بضمير الغائب. ولنا في ذلك تبريرات في كتابنا "**السارد في الرِّواية العربية من سنة 1996 إلى سنة 2006**"، الباب الأول، دار ضحى للنشر، تونس، 2017.

المصدر

محمد البساطي، ليال أخرى، دار الآداب، بيروت، لبنان، 2000.